بشىء آت إلا بعد أنْ ذكر لله النعم السابقة ، وشكره عليها ، فوافق قوله تعالى : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ .. ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم]

لذلك فإن أهل المعرفة يقولون : إن العبد مهما اجتهد فى الدعاء ، فإنه يدعو بالخير على حسْب فهمه ومنطقه وبمقدار علمه ولو أنه ذكر النعيم الأول لله تعالى ، وأقرّ له بالفضل ، ثم ترك المسألة له تعالى يعطيه ويختار له لكان خيراً له ؛ لأن ربه عز وجل يعطيه على حَسْب قدرته تعالى وحكمته .

وهذا المعنى واضح فى الحديث القدسى : « مَنْ شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين »[(١)] .

فعطاء الله لا شكَّ أوسع ، واختياره لعبده أفضل من اختيار العبد لنفسه ، كما لو ذهبتَ فى رحلة مثلاً وقلت لولدك : ماذا تريد أنْ أُحضر لك من البلد الفلانى ؟ فإنْ قال : أريد كذا وكذا فقد ضيّق على نفسه، وإنْ ترك لك الاختيار جاء اختيارك له خيراً من اختياره لنفسه .

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾

نلحظ أنه لم يدْعُ بشىء من الدنيا ، ومعنى ﴿حُكْمًا .. ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء] فرق بين الحكم والحكمة : الحكمة أن تضع الشىء فى موضعه ، أما الحكم فأنْ تعلم الخير أولاً ، ثم تعمل بما علمت ثانياً .

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٩٢٦) من حديث أبى سعيد الخدرى وقال : هذا حديث حسن غريب ، وكذا أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١٠٦/٥) ، وكذا الدارمى فى سننه (٤٤١/٢) بلفظ « من شغله قراءة القرآن عن مسألتى وذكرى أعطيته أفضل ثواب السائلين ، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » قال ابن حجر فى فتح البارى (٦٦/٩) : « رجاله ثقات إلا عطية العوفى ففيه ضعف » . وقد شرح فضيلة الشيخ الشعراوى رحمه الله هذا الحديث مفصلاً فى كتاب « الأحاديث القدسية » (٤٩١/١ - ٥١٤) .

وقال في دعائه : ﴿هَبْ لِي .. (٨٣)﴾ [الشعراء] لأن الهبة عطاء دون مقابل ، فكأنه قال : يا رب أنا لا أستحق ، فاجعلها لي هبةً من عندك ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣)﴾ [الشعراء] أي : ألحقني بهم في العمل والأسْوة لأنالَ بعدها الجزاء ، وليس المراد : ألحقني بهم في الجزاء ، إنما في العمل .

وقد أجابه الله تعالى في هذه الدعوة ، فقال سبحانه : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٧٥)﴾ [الأنعام]

والملكوت : المخلوقات غير المحسّة ، أطلعه الله عليها ؛ لأنه عمل بما علم من الملك المحسّ ، وكذلك قال : ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠)﴾ [البقرة] فأجابه في الدعوة الأخرى .

﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤)﴾

نعرف أن اللسان وسيلة التعبير ، ومعنى ﴿لِسَانَ صِدْقٍ .. (٨٤)﴾ [الشعراء] يعني : ذكراً حسناً يذكر بحق ، ويذكر بصدق ، لا كما نفعل الآن حين نقيم ذكرى لأحد الأشخاص ، فنظل نكيل له المدائح ونُثني عليه بالصِّدْق وبالكذب ، وبما فعل وبما لم يفعل ، فهذا ذكر ، لكنه ذكر غير صادق ومخالف للحقيقة وللواقع .

وسبق أن أوضحنا أن الصدق هو الكلام المطابق للواقع ، وقد ورد هذا المعنى في الأمهات الخمس في القرآن الكريم ، في قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ .. (٨٠)﴾ [الإسراء]

يعني : أدخلني بصدق - لا بغشٍّ يعني - مدخلاً أستطيع منه الخروج ، وكذلك أخرجني مُخرج صدق .

وفى قوله تعالى : ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾ [القمر]

وفى قوله تعالى : ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦)﴾ [الأحقاف] هذه المواضع الخمس لكلمة الصدق(١) .

ومعنى : ﴿فِي الْآخِرِينَ (٨٤)﴾ [الشعراء] يعنى : يتعدى الذكْر الحسن مدة حياتى إلى مَنْ بعدى ، فاجعل لى لسان صدق فى المعاصرين ، وفيمن يأتى بعدى أترك أثراً طيباً يُذكَر من بعدى ؛ لأن لى نصيباً من الخير والثواب فى كل مَن اقتدى بى ، وجعلنى أُسْوة .

وقد أجابه الله فى هذه ، فقال سبحانه : ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩)﴾ [الصافات]

﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥)﴾

بعد أن دعا لأمر فى الدنيا ، ثم لأمر بعد موته دعا لنفسه بجنة النعيم الدائم فى الآخرة ، ولا شك أن ربه - عز وجل - قد أجابه إلى هذه ، فهو من ورثة جنة النعيم ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠)﴾ [البقرة]

---

(١) تحقيق الأمر أن كلمة الصدق وردت فى القرآن عشر مرات :
١ - لسان صدق : مرتان (مريم : ٥٠) ، (الشعراء : ٨٤) .
٢ - مدخل صدق : مرة واحدة (الإسراء : ٨٠) .
٣ - مخرج صدق : مرة واحدة (الإسراء : ٨٠)
٤ - وعد الصدق : مرة واحدة (الأحقاف : ١٦) .
٥ - مقعد صدق : مرة واحدة (القمر : ٥٥) .
وبالإضافة إلى هذا :
- قدم صدق : مرة واحدة (يونس : ٢) .
- مبوأ صدق : مرة واحدة (يونس : ٩٣) .
- الصدق : مرتان (الزمر : ٣٢) ، (الزمر : ٣٣) والله تعالى أعلى وأعلم .

وكلمة ميراث الجنة وردتْ في القرآن أيضاً في قوله تعالى :

﴿ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) ﴾

[المؤمنون]

والميراث أنْ تأخذ ملكاً من آخر بعد موته ، فكيف تكون الجنة ميراثاً ؟

قال العلماء : إن الخالق - عز وجل - لم يخلق الجنة على قدر أهلها وكذلك النار ، إنما خلق الجنة تتسع للناس جميعاً ، إنْ آمنوا ، وخلق النار تتسع للناس جميعاً إنْ كفروا ؛ ذلك لأنه سبحانه خلق الخلْق مختارين ، مَنْ شاء فليؤمن ، ومَنْ شاء فليكفر . وعليه ، فميراث الجنة يعني أنْ يرث المؤمنون أماكن الذين كفروا في الجنة ، يتقاسمونها فيما بينهم .

والوارث يرث مال غيره وثمرة سعيه ، لكن لا يسأل عنها ، إنما يأخذها طيبة حتى إنْ جمعها صاحبها من الحرام ، إلا إنْ أراد الوارث أن يبرىء ذمة المورِّث ، فيردَّ المظالم إلى أهلها .

إذن : الوارث يأخذ الميراث دون مقابل فكأنه هبة ، وعلى هذا المعنى يكون المراد بميراث الجنة أن الله تعالى أعطى عباده الطائعين الجنة هبةً منه سبحانه ، وتفضّلاً عليهم ، وليس بعملهم ، فالجنة جاءتهم كما يأتي الميراث لأهله دون تعب منهم ودون سَعْي .

وهذا تصديق لقول رسول الله ﷺ في الحديث النبوي : « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني[1] الله برحمته »[2] .

---

(١) تغمَّده الله برحمته : أدخله فيها وغمره بها . قال أبو عبيد : قوله « يتغمدني » : يُلبسني ويتغشّاني ويسترني . [لسان العرب - مادة : غمد] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

قالوا : فالجنة ميراث ؛ لأن الأصل أنك لا تُجازَى على الخير الذى قدمتـه ؛ لأنه تكليف من الله تعالى يعود خيره عـليك فى الدنيا ، حيث تستقيم به حياتك وتسـعد بها ، وما دام التكليف فى صالحك ، فكيف تأخذ أجـراً عليه ؟ كـالوالد حين يحثّ ولـده على المذاكرة والـجد فى دروسه ، فهذا يعود نفعه على الولد ، لا على الوالد .

وكأن ربك ـ عز وجل ـ يـقول لك : ما دُمْتَ قد احتـرمتَ تكليفى لك ، وأطعـتنى فيـما ينفـعك أنت ، ولا يعـود علىَّ منه شىء ، فحـين أعطيك الجنة أعطيك بفـضلى وهبَة منى ، أو أننا نأخذ الـجنة بالعمل ، والمنازل بالفضل .

إذن : لا غنَى لأحد منّا عن فَضْل الله .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس]

هذا هو المعنى المراد بميراث الجنة ، وينبغى ألاَّ تعوِّل على عملك وطاعتك واجـتهادك فى العـبادة ، واعلم أن النجاة لا تكون إلا برحـمة الله وفضل منه سبحانه .

ثم ترك الدعاء لذاته وانتقل لمن رباه فقال :

﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) ﴾

لم ينْسَ إبراهيم ـ عليـه السلام ـ فى دعائه أن يـدعو لمن رباه ؛ لأن الحق ـ تبـارك وتعـالى ـ هو الخـالق ، إنمـا جـعل الوالدين همـا السبب المـباشر فى الخَلْـق والإيجاد ؛ لذلك جعلهـما أصحـاب الفضل والأحق بالطاعة بعده تعالى ، لكن قـد ينجب الوالدان ويهملان ولدهما فيربيه غـيرهما ؛ لذلك يأخذ المنزلة الثالثـة ، فعندنا ربوبية خلَقَت من عدم ، وأبوة جاءت بأسباب الإيجاد ، وأبوة أخرى ربَّت واعتنتْ .

وهذا المعنى واضح فى قوله سبحانه : ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) ﴾ [الإسراء] فحيثية الدعاء بالرحمة هنا ، لا لأنهما أبوان وهما سبب الإيجاد ، إنما لأنهما ربَّيانى صغيراً ، إذن : لو ربَّانى غير والدىَّ لأخذوا هذه المنزلة واستحقوا منى هذا الدعاء .

لكن لم يُستجَبْ لإبراهيم عليه السلام فى هذه ، لأنه سأل الله لأبيه قبل أن يعرف أنه عدو لله ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ .. (١١٤) ﴾ [التوبة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تُخْزِنِي[1] يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) ﴾

بأىِّ شىء يكون الخزى فى الآخرة ؟ الخزى يكون حين يعاتبك ربك يوم القيامة على رؤوس الأشهاد على ما فَرَط منك من تقصير ؛ لذلك الحساب اليسير ما كان بين العبد وربه ، وقد أُجيب إبراهيم عليه السلام فى هذه الدعوة بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) ﴾ [البقرة]

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨)
إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه والنسائى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصينى ؟ فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك فيقول إبراهيم : رب إنك وعدتنى أن لا تخزينى يوم يبعثون ، فأىُّ خزى أخزى من أبى الأبعد ؟ فيقول الله : إنى حرمت الجنة على الكافرين . ثم يقال : يا إبراهيم ما تحت رجليك ؟ فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار » . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٣٠٧) .

قوله : ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) ﴾ [الشعراء] فأتى بالمسألة التى تشغل الناس جميعاً ، فكل إنسان يريد أن يكون غنياً صاحب مال وأولاد وعِزْوة ، ومَنْ حُرِم واحدة منهما حَزِن وألم أشدّ الألم .

والحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٤٦) ﴾ [الكهف]

ويقول سبحانه : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ .. (١٤) ﴾ [آل عمران]

نعم ، هى زينة الحياة الدنيا . ومعنى الزينة : الحُسْن غير الذاتى ، فالحُسْن قد يكون ذاتياً فى الجوهر كالمرأة التى تكون جميلة بطبيعتها التى خلقها الله عليها ، دون أنْ تتكلّف الجمال ، أو الزينة الظاهرة من مساحيق أو ذهب أو خلافه ، لذلك سمَّوْها فى اللغة (الغانية) وهى التى استغنتْ بجمالها الطبيعى الذاتى عن أنْ تتزيّن بأىّ شىء آخر .

وقوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾ [الشعراء] يعنى : مع أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا ، فهذا لا يمنع نفعهما لصاحبهما إنْ أحسن التصرُّف فى ماله ، فأنفقه فى الخير ، وأحسن تربية أولاده التربية الصالحة ، لكن هذه أيضاً لا تصفو له ولا تستقيم إلا إذا ﴿ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾ [الشعراء]

يعنى : توفّر له الإخلاص فى هذا كله ، وإلاَّ فالرياء يُحبط العمل ، ويجعله هباءً منثوراً ، إنْ كنتَ تفعل الخير فى الدنيا ولا تؤمن بالله ولا تُنزهه سبحانه عن الشريك ، فلن ينفعك عملك ، ولن يكون لك منه نصيب فى ثواب الآخرة .

كما قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان]

وفى الحديث القدسى : « ... فعلت ليقال وقد قيل ... »[١] .

فعلتَ ليُقام لك حفل تكريم وقد أقيم لك ، فعلتَ لتأخذ نيشاناً وقد أخذتَه ، فعلتَ ليُكتب اسمك على باب المسجد وقد كُتب ، إذن : انتهت المسألة .

فقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) ﴾ [الشعراء] لا ينفى نفع المال والبنين ، فهى نافعة شريطة أنْ تأتى الله بقلب سليم ، والسلامة هنا تعنى : أن يظلّ الشىء على حاله وعلى صلاحه الذى خلقه الله عليه لا يصيبه عطب فى ذاته ، فيؤدى مهمته كما ينبغى .

فكأن السلامة تُوجد أولاً ، ونحن الذين نُفسد هذه السلامة .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لاَّ يَشْعُرُونَ (١٢) ﴾ [البقرة]

لذلك لو تأمّل الناس فيما يُتعبهم فى الحياة لوجدوا أنه ثمرة إفسادهم فى الكون المنظم الذى خلقه الله على مقتضى حكمته تعالى ، بدليل أن كل حركة فى الكون لا يتدخل فيها الإنسان تراها مُستقيمة منتظمة لا تتخلف ، فإنْ تدخَّل الإنسان وُجد الفساد ووُجد الظلم للغير ، حتى للنبات وللجماد وللحيوان ، وقد نهانا الشارع الحكيم عن هذا كله .

هذا إنْ تدخّل الإنسان فى الكون على غير مقتضى منهج ربه ، فإنْ تدخَّل على هُدًى من منهج الله استقامتْ الأمور وتحققتْ السلامة .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) ، وأحمد فى مسنده (٣٢٢/٢) والترمذى فى سننه (٢٣٨٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال الترمذى : حديث حسن غريب . وهو حديث طويل شرحه الشيخ رحمه الله فى « الأحاديث القدسية » (١٣٥/١ - ١٥١) .

ألا ترى قوله تعالى فى سورة الرحمن :

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) ﴾ [الرحمن]

لذلك تجد كل شيء فى الكون موزوناً بقدر وبحكمة : الشمس والقمر والنجوم والهواء والماء .. الخ وكل عناصر الكون هذه تسير مستقيمة فى منظومة الكون المتكاملة ، لماذا ؟ لأنه لا دَخْلَ للإنسان فيها .

فمعنى القلب السليم : القلب الذى لا يعمُر إلا بما أراد الله أنْ يعمُرَ به ، وقد ورد فى الحديث القدسى : « ما وسعتنى أرضى ولا سمائى ، ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن »[(1)] .

إذن : لا تزحم قلبك بما يَشْغَله من أمور الدنيا ، واجعله خالياً لله مُنْشغلاً به ، فهذه هى سلامة القلب ؛ لأن القلب مفطور على هذا ، مطبوع عليه .. ساعة خلقه الله خلقه صافياً سليماً من المشاغل ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ .. (٧٨) ﴾ [النحل] لماذا ؟ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

إذن : لا تأخذ المال والبنين منفصليْن عن سلامة القلب ؛ لأن ربك يقول : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦) ﴾ [الكهف]

---

(١) قال الملا على القارى فى « الأسرار المرفوعة فى الأخبار الموضوعة » (ص ٢٠٦) دار الكتب العلمية بيروت : « ذكره فى الإحياء ، وقال العراقى : لم أر له أصلاً . وقال ابن تيمية : هو مذكور فى الإسرائيليات وليس له إسناد معروف عن النبى ﷺ : وفى « الذيل » وهو كما قال . ومعناه : وسع قلبُه الإيمان بى وبمحبتى . وإلا فالقول بالحلول كفر . وقال الزركشى : وضعه الملاحدة » . وانظر : كشف الخفاء ٢ / ٢٧٣ والدرر المنتثرة للسيوطى ص ٣٦٦ .

وفى آية : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ .. (١٤) ﴾ [آل عمران] ختمها الحق سبحانه بقوله : ﴿ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) ﴾ [آل عمران]

ومن سلامة القلب أن يخلو من الشرك ، وأن يخلو من النفاق ؛ لأن المنافق يؤمن بلسانه ، ولا يؤمن بقلبه ، فقلبه لا يوافق لسانه ؛ لذلك هو غير سليم القلب ، فكان أشد إثماً من الكافر ، وجعله الله فى الدَّرْك الأسفل من النار .

المنافق أشد تعذيباً من الكافر ؛ لأن الكافر مع كُفْره هو منطقىّ مع نفسه ، حيث كفر بقلبه وبلسانه ، ونطق بما يعتقده ، أما المنافق فقد غشَّنا وحُسب علينا ظاهراً ، ومنهم مَنْ كان يصلى خلف رسول الله ﷺ فى الصف الأول ، وهو فى حقيقة الأمر من الطابور الخامس داخل صفوف المسلمين .

وكذلك الرياء ينافى سلامة القلب ، فالمرائى يعمل للناس ولا يعمل لله ، ونعجب حين نرى مَنْ يُقدِّم الجميل رياءً وسُمْعة ، ثم يتهم مَنْ أسدى إليه الجميل بأنه ناكر للجميل ، نقول له : لماذا تتهمه وقد سبقته فأنكرتَ جميل الله ، حيث لم تجعله على بالك حين فعلتَ الخير .

إذن : فهذا جزاؤك جزاءً وفاقاً ، لأنك ما فعلتَ الخير لله ، إنما فعلته للعبد فانتظر منه الجزاء . وصَفْقَة المرائى خاسرة ، وتجارته بائرة ؛ لأنه حين يعطى رياءً يستفيد منه الآخذ ويخرج هو صُفْر اليدين ، كما قال سبحانه : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا .. (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

وبعد ذلك ترى الناس تكره المرائى ، ويُنكرون جميله فى بناء مسجد أو مستشفى أو مدرسة مثلاً ، ولو عمل ذلك لله لأبقى الله

ذِكْره بين الناس ، فحفظوا جميله ، وأثنَوْا عليه بالخير .

ويُرْوى أن السيدة فاطمة الزهراء دخل عليها سيدنا رسول الله ﷺ فوجدها تجلو درهماً فى يدها ، فلما سألها عنه قالت : لأنّى قد نويتُ أنْ أتصدّق به ، فقال لها : تصدَّقى به وهو على حاله ، فقالت : أنا أعلم أنه يقع فى يد الله قبل أن يقع فى يد الفقير ، والله طيب لا يقبل إلا طيباً .

ثم يذكر الحق - تبارك وتعالى - نتيجة سلامة القلب وثمرة الإخلاص فى العمل ، فيقول :

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

﴿ أُزْلِفَتِ.. ﴿٩٠﴾ ﴾ [الشعراء] يعنى : قُرِّبت ، لكن كيف تقرب منهم وهم بداخلها ؟ قالوا : تُقرَّب منهم قبل أن يدخلوها ، وهم ما زالوا فى شدة الموقف وهول القيامة والحساب ، فتُقرَّب منهم الجنة ليطمئنوا بها ، ويهون عليهم هذا الموقف الصعب .

وفى آية أخرى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [ق] يعنى : يروْنها عياناً ، ويعرفون أنها النعيم الذى ينتظرهم ، وسوف يباشرونه عن قريب ، كما لو دُعيتَ إلى مائدة أحد العظماء ، وقد أُعدَّتْ على أتمِّ وجه ، فإن من النعيم أن تمر بها وتشاهد ما عليها من أطايب الطعام قبل أن يحين وقت الاجتماع عليه .

﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

وهذه لمن أتى الله بقلب غير سليم ، قلب خالطه شرك أو نفاق أو رياء ، وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا .. ﴿٧١﴾ ﴾ [مريم]

والورود لا يعنى دخول النار ، إنما رؤيتها والمرور بها ؛ لأن الصراط مضروب على متْن جهنم ، فالورود شيء والدخول شيء آخر ، ومن ذلك قوله تعالى فى قصة موسى عليه السلام : ﴿ ولَمَّا ورد ماء مدين وجد عليه أُمة من الناس يسقون (٢٣) ﴾ [القصص] مع أن موسى - عليه السلام - ورد الماء يعنى : مكان الماء ، ولم يشرب منه .

والحكمة من ورود النار بهذا المعنى أنْ يعرف المؤمن فضْل الإيمان عليه ، وأنه سبب نجاته من هذه النار التى يراها ، وهذه أعظم نعمة عليه ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ فمن زُحزِح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران]

ومعنى ﴿ للغاوين (٩١) ﴾ [الشعراء] جمع غاوٍ ، وهو إما أنْ يكون غاوياً فى نفسه ، أو أغوى غيره ، فتطلق على الغاوى ، وعلى الذى يُغوى غيره .

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أين ما كنتم تعبدون (٩٢) ﴾ [الشعراء] أرونا مَنْ أشركتموهم مع الله ، أين هم الآن ؟

وفى موضع آخر : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون (٢٢) من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم (٢٣) وقفوهم إنهم مسئولون (٢٤) ما لكم لا تناصرون (٢٥) ﴾ [الصافات]

لقد ضلوا عنكم ، وتركوكم ، بل وتبرأوا منكم : ﴿ إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب (١٦٦) ﴾ [البقرة]

ثم يأتى الذين اتبعوا فيقولون : ﴿ ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن

وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩)﴾ [فصلت]

نعم ، إنها معركة ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾ [الزخرف]

وقوله تعالى : ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣)﴾ [الشعراء] يعني : لا يستطيعون نصركم ، أو الدفاع عنكم ، ولا حتى نَصْر أنفسهم ، فإنْ كان نصرهم لأنفسهم ممنوعاً فلغيرهم من باب أَوْلَى ، ففي الآية تقريع لهم ولمن عبدوهم من دون الله ، وتحقير لشأنهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤)﴾

الفعل كَبْكب ، يعني : كبُّوا مرة بعد أخرى على وجوههم ، فهي تعني تكرار الكَبِّ ، فكلما قام كُبَّ على وجهه مرة أخرى ، وهي على وزن فعللة الدال على التكرار كما تقول : زقزقة العصافير ، ونقنقة الضفادع . والمراد هنا الأصنام تكبّ على وجوهها ، وتسبق مَنْ عبدها إلى النار ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ[(١)] جَهَنَّمَ .. (٩٨)﴾ [الأنبياء]

وقال : ﴿هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤)﴾ [الشعراء] فالغاوون يسبقون مَنْ أغْوَوْهم وأضلوهم ؛ ليقطع أمل التابعين لهم في النجاة ، فلو دخل التابعون أولاً لقالوا : سيأتي منْ عبدناهم لينقذونا ، لكن يجدونهم أمامهم قد سبقوهم ، كما قال تعالى عن فرعون : ﴿يَقْدُمُ[(٢)] قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ .. (٩٨)﴾ [هود]

---

(١) الحصب : كل ما يُلْقى في النار لتسعَّر به . [القاموس القويم ١/١٥٥] .

(٢) أي : يقودهم ويسير أمامهم إلى جهنم . [القاموس القويم ٢/١٠٥] .

﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

ولإبليس جنودٌ من الجن ، وجنود من الإنس ، سيجتمعون جميعاً في النار .

﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾

هذه لقطة من ساحة القيامة ، حيث يختصم أهل الضلال مع مَنْ أضلوهم ، ويُلْقى كل منهم بالتبعة على الآخر .

وهذه الخصومة وردتْ في قوله تعالى على لسان الشيطان : ﴿ وما كان لِيَ عليكُم مِن سُلْطان إلاَّ أن دعوتُكُمْ فاستجبتُمْ لي فلا تلوموني ولُوموا أنفسكُم .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم] والمعنى : لم يكُنْ لي عليكم سلطانُ قَهْر أحملكم به على طاعتي ، ولا سلطان حجة أقنعكم به .

ثم يعترف أهل الضلال بضلالهم ويقسمون ﴿ تاللّه .. ﴿٩٧﴾ ﴾ [الشعراء] يعني : والله ﴿ إن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الشعراء] يعني : ظاهر ومحيط بنا من كل ناحية ، فأين كانت عقولنا ﴿ إِذْ نُسوِّيكُم بربِّ العالمين ﴿٩٨﴾ ﴾ [الشعراء] أي : في الحب ، وفي الطاعة ، وفي العبادة .

كما قال سبحانه : ﴿ ومِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّه أَندادًا يُحِبُّونَهُمْ كحبِّ اللَّه .. ﴿١٦٥﴾ ﴾ [البقرة]

﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

يعني : يا رب أرنا هؤلاء المجرمين ، ومكنّا منهم لننتقم لأنفسنا ،

ونجعلهم تحت أقدامنا ، وهكذا أخرجوا كل سُمُّهم فى هؤلاء المجرمين ، وألقوا عليهم بتبعة ما هم فيه .

﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) ﴾

الشافع من الشَّفْع أى : الاثنين ، والشافع هو الذى يضمُّ صوته إلى صوتك فى أمر لا تستطيع أن تناله بذاتك ، فيتوسط لك عند مَنْ لديه هذا الأمر ، والشفاعة فى الآخرة لا تكون إلا لمن أذن الله له ، يقول تعالى : ﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ .. (٢٨) ﴾ [الأنبياء]

ويقول سبحانه :

﴿ مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة]

إذن : ليس كل أحد صالحاً للشفاعة مُعداً لها ، وكذلك فى الشفاعة فى الدنيا فلا يشفع لك إلا صاحب منزلة ومكانة ، وله عند الناس أياد تحملهم على احترامه وقبول وساطته ، فهى شفاعة مدفوعة الثمن ، فللشافع رصيد من الجميل وسوابق الخير تزيد عما يطلب للمشفوع له .

لذلك نرى فى الريف مثلاً رجلاً له جاه ومنزلة بين الناس ، فيحكم فى النزاعات ويفصل فى الدم ، فحين يتدخَّل بين خصمين ترى الجميع ينصاع له ويذعن لحكومته .

ومن ذلك ما عرفناه فى الشرع من شركة الوجوه[1] ، ومعلوم أن

---

(١) قال موفق الدين ابن قدامة (ت ٦٣٠ هـ) فى كتابه « المغنى » (٥/١٢٢) : « أما شركة الوجوه فهو أن يشترك اثنان فيما يشتريان بجاههما وثقة التجار بهما من غير أن يكون لهما رأس مال ، على أن ما اشتريا بينهما نصفين أو أثلاثاً أو أرباعاً أو نحو ذلك ويبيعان ذلك . فما قسم الله تعالى فهو بينهما فهى جائزة » .

الشركة تحتاج إلى مال أو عمل ، لكن قد يوجد شخص ليس لديه مال ولا يستطيع العمل ، لكن يتمتع بوجاهة ومنزلة بين الناس ، فنأخذه شريكاً معنا بما لديه من هذه الميزة .

والحقيقة أن وجاهته ومنزلته بين الناس قُوِّمت بالمال ؛ لأنه ما نالها من فراغ ، إنما جاءت نتيجة جَهْد وعمل ومجاملات للناس ، احترموه لأجلها ، فلما زال عنه المال وأنفقه في الخير بَقِي له رصيد من الحب والمكانة بين الناس .. ومن ذلك أيضاً شراء العلامة التجارية .

ومعنى ﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) ﴾ [الشعراء] فرْق بين الشافع والصديق ، فالشافع لا بُدَّ أن تطلب منه أن يشفع لك ، أما الصديق وخاصة الحميم لا ينتظر أن تطلب منه ، إنما يبادرك بالمساعدة ، ووصف الصديق بأنه حميم ؛ لأن الصداقة وحدها في هذا الموقف لا تنفع حيث كل إنسان مشغول بنفسه .

فإذا لم تكُنْ الصداقة داخلة في الحميمية ، فلن يسأل صديق عن صديقه ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) ﴾ [عبس]

وقد أثارت مسألة الشفاعة لغطاً كثيراً من المستشرقين الذين يريدون تصيُّد المآخذ على القرآن الكريم ، فجاء أحدهم يقول : تقولون إن القرآن معجزة في البلاغة ، ونحن نرى فيه المعنى الواحد يأتي في أسلوبين ، فإنْ كان الأول بليغاً فالآخر غير بليغ ، وإنْ كان الثاني بليغاً فالأول غير بليغ ، ثم يقول عن مثل هذه الآيات : إنها تكرار لا فائدة منه .

ونقول له : أنت تنظر إلى المعنى فى إجماله ، وليس لديك الملكة العربيـة التى تستقـبل بها كلام الله ، ولو كانت عـندك هذه الملكة لما اتهمتَ القرآن ، فكل آية ممـا تظنه تكراراً إنما هى تأسيس فى مكانها لا تصلح إلا له .

والآيتـان محـل الكلام عن الشـفاعـة فى سـورة البـقرة ، وهمـا متفقتان فى الصدر مختلفتان فى العَجُز ، أحدهما :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا .. (٤٨) ﴾ [البقرة]

والأخرى :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا .. (١٢٣) ﴾ [البقرة]

إذن : فصـدْر الآيتين متـفق ، أما عَـجُز الأولى : ﴿ وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ..(٤٨) ﴾ [البقرة]

وعَجُز الأخرى : ﴿ وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ .. (١٢٣) ﴾ [البقرة] فهما مختلفتان .

وحين تتأمل صَدْرَىْ الآيتين الذى تظنه واحداً فى الآيتين تجد أنه مختلف أيضـاً ، نعم هو مُتحد فى ظاهره ، لكن حـين تتأمله تجد أن الضمير فيهما : إما يعود على الشافع ، وإما يعود على المشفوع له ، فإنْ عـاد الضمـير على المـشفوع لـه نقول له : لا نأخذ مـنك عدلاً ، ولا تنفعك شفـاعة ، وإنْ عاد الضمير على الشـافع نقول له : لا نقبل منك شفاعة ـ ونُقدِّم الشفاعة أولاً ـ ولا نأخذ منك عدلاً .

إذن : ليس فى الآيتين تكرار كما تظنون ، فكلٌّ منهما يحمل معنى لا تؤديه الآية الأخرى .

وقد أوضـحنا هذه المسـألة أيضاً فى قـوله تعالى : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا

أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ .. (٣١)﴾ [الإسراء]

والأخرى : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ .. (١٥١)﴾ [الأنعام]

فصدْرا الآيتين مختلف ، وكذلك العَجُز مختلف ، فعَجُز الأولى : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ..(٣١)﴾ [الإسراء]

وعَجُز الأخرى : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ..(١٥١)﴾ [الأنعام]

وحين نتأمل الآيتين نجد أن لكل منهما معناها الخاص بها ، وليس فيهما تكرار كما يظن البعض .

ففى الآية الأولى : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ .. (٣١)﴾ [الإسراء] إذن : فالفقر غير موجود ، والأب يخاف أن يأتى الفقر بسبب الأولاد ، فهو مشغول برزق الولد ، لا برزقه هو ؛ لأنه غنى غير محتاج ؛ لذلك قدَّم الأولاد فى عَجُز الآية ، كأنه يقول للأب : اطمئن فسوف نرزق هؤلاء الأولاد أولاً ، وسوف تُرزَق أنت أيضاً معهم .

أما فى الآية الأخرى : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ .. (١٥١)﴾ [الأنعام] فالفقر فى هذه الحالة موجود فعلاً ، وشُغل الأب برزق نفسه أَوْلى من شغله برزق ولده ؛ لذلك قال فى عَجُز الآية : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١)﴾ [الأنعام] فقدَّمهم على الأولاد .

إذن : لكل آية معناها الذى لا تؤديه عنها الآية الأخرى .

ثم يقول الحق سبحانه عنهم أنهم قالوا :

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢)﴾

معنى : ﴿كَرَّةً.. (١٠٢)﴾ [الشعراء] أى : عودة إلى الدنيا ورجعة ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢)﴾ [الشعراء] أى : نستأنف حياة جديدة ،

فنؤمن بالله ونطيعه ، ونستقيم على منهجه ، ولا نقف هذا الموقف .

وفى آيات أخرى شرحت هذه المسألة ، يقول تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) ﴾ [المؤمنون]

يعنى ﴿ كَلَّا .. (١٠٠) ﴾ [المؤمنون] لن يعودوا مرة أخرى ، وما هى إلا كلمة يقولونها بألسنتهم يريدون النجاة بها ، لكن هيهات فبينهم وبين الدنيا برزخٌ يعزلهم عنها ، ويمنعهم العودة إليها ، وسوف يظل هذا البرزخ إلى يوم يُبعثون .

وفى آية أخرى حول هذا المعنى يُرقِّى الحق - تبارك وتعالى - المسألة من موقف الموت إلى موقف القيامة ، فيقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) ﴾ [الأنعام]

وهذا كَذِب منهم وقَوْل باللسان لا يوافقه العمل ؛ لذلك ردَّ الحق - تبارك وتعالى - عليهم بقوله : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) ﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾

الآية : هى الأمر العجيب الملفت للنظر ، وما كان ينبغى أنْ يمرَّ على العقول بدون تأمّل واعتبار ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾ [الشعراء] رغم أن هذه الآيات ظاهرة واضحة ، ومع ذلك كان أكثرهم غير مؤمنين .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤) ﴾

أى : مع كونهم لم يؤمن أكثرهم ، فالله تعالى هو العزيز الذى لا يُغلَب ، إنما يغلب ، ومع عزّته تعالى فهو رحيم بعباده يفتح باب التوبة لمن تاب .

ثم ينتقل السياق القرآنى من قصة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى قصة أخرى من رَكْب الأنبياء ومواكب الرسل هى قصة نوح عليه السلام :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) ﴾

القوم : هم الرجال خاصة ، وسُمُّوا قوماً ؛ لأنهم هم الذين يقومون بأهم الأشياء ، ويقابل القوم النساء ، كما جاء شرح هذا المعنى فى قوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ .. (١١) ﴾ [الحجرات]

فالرجال هم القوم ؛ لأنهم يقومون بأهم الأمور ، وعليهم مدار حركة الحياة ، والنساء يستقبلْنَ ثمار هذه الحركة ، فينفقونها بأمانة ويُوجِّهونها التوجيه السليم .

والشاعر العربى أوضح هذا المعنى بقوله :

وَمَا أَدْرِى ولسْتُ إخَالُ أدْرِى أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نِسَاءٌ[1]

ونفهم أيضاً هذه القوامة للرجل من قَوْل الله تعالى حينما وعظ

---

(١) هو قول زهير بن أبى سلمى ، شاعر جاهلى . قال ابن الأثير : القوم فى الأصل مصدر قام ثم غلب على الرجال دون النساء ، ولذلك قابلهن به ، وسموا بذلك لأنهم قوّامون على النساء بالأمور التى ليس للنساء أن يقمن بها . وقال الجوهرى : ربما دخل النساء فيه على سبيل التبع لأن قوم كل نبى رجال ونساء . [لسان العرب ـ مادة : قوم] .

آدم وحذَّره من الشيطان : ﴿ إنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ .. (١١٧) ﴾ [طه] وحسب القاعدة نقول : فتشقيا .

لكن الحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿ فَتَشْقَىٰ (١١٧) ﴾ [طه] أنت يا آدم وحدك فى حركة الحياة ، فالرجل يتحمل هذه المشقة ويكرم المرأة أن تُهَان أو تشقى ، لكن ماذا نفعل وهى تريد أن تُشقِى نفسها ؟!

ونلحظ أن الآية تقول : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) ﴾ [الشعراء] كيف وهم ما كذَّبوا إلا رسولهم نوحاً عليه السلام ؟ وكانوا مؤمنين قبله بآدم وإبراهيم مثلاً .

قالوا : لأن الرسل عن الله إنما جاءوا فى أصول ثابتة فى العقيدة وفى الأخلاق لا تتغير فى أى دين ؛ لذلك فمن كذَّب رسوله فكأنه كذَّب كل الرسل ، ألاَ ترى أن من أقوال المؤمنين أن يقولوا :

﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) ﴾ [آل عمران]

وقال تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ .. (٢٨٥) ﴾ [البقرة]

فإنْ قُلْتَ : فماذا عن اختلاف المناهج والشرائع من نبى لآخر ؟ نقول : هذه اختلافات فى مسائل تقتضيها تطورات المجتمعات ، وهى فرعيات لا تتصل بأصل العقائد والأخلاق الكريمة .

لذلك نجد هذه لازمة فى كُلِّ مواكب الرسالات ، يقول : المرسلين ، المرسلين ؛ لأن الذى يُكذِّب رسوله فيما اتفق فيه الأجيال

من عقائد وأخلاق ، فكأنه كذَّب جميع المرسلين .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الشعراء] يريد أن يُحنِّن قلوبهم عليه بكلمة ﴿ أَخُوهُمْ .. ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الشعراء] التى تعنى أنه منهم وقريب الصِّلة بهم ، ليس أجنبياً عنهم ، فهم يعرفون أصله ونشأته ، ويعلمون صفاته وأخلاقه .

لذلك لما بُعث النبى ﷺ وأبلغ الناس برسالته بادر إلى الإيمان به أقرب الناس إليه ، وهى السيدة خديجة دون أنْ تسمع منه آية واحدة ، وكذلك الصِّديق أبو بكر وغيرهما من المؤمنين الأوائل ، لماذا ؟

لأنهم بَنَوْا على تاريخه السابق ، واعتمدوا على سيرته فيهم قبل الرسالة ، فعلموا أن الذى لا يكذب على الناس مستحيل أن يكذب على رب الناس .

والسيدة خديجة رضوان الله عليها تعتبر أول فقيهة ، وأول عالمة أصول فى الإسلام ، حينما جاءها رسول الله ﷺ يشكو ما يعانى ، ويخشى أن يكون ما يأتيه من الوحى رئياً من الجن أو توهمات تفسد عليه عقله وتفكيره ، قالت له - انظر إلى العظمة - « والله إنك لتصل الرحم ، وتَقْرى الضيف ، وتحمل الكَلَّ ، وتُعين على نوائب الدهر ، والله لا يخزيك الله أبداً »[1] .

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) وستة مواضع أخرى من صحيحه ، وأخرجه أيضاً مسلم فى صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها . ومعنى « تحمل الكل » أى : تعين المثقل ومنه الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال . و « تكسب المعدوم » أى : تستفيد المال المعدوم وقد كان النبى ﷺ محظوظاً فى تجارته . « تقرى الضيف » أى : تطعمه طعام الأضياف . و « نوائب الحق » حادثات الأيام . انظر : شرح النووى على مسلم (٢/ ٥٦١) وفتح البارى للعسقلانى (١/ ١٢٤) .